﴿باب المفاسد من الاعمال الدينية﴾

(الدرس ٣٦) محمد رسول الله وخاتم النبيين

الكلام في نبوة خاتم النبيين لا يتجلى للعقول كمال التجلي الا بعد بيان مسئلتين مجملان مقدمة له — احداهما بيان حاجة البشر الى رسالته العامة والثانية بيان استعداد الناس لها

(المسئلة ١٠١) حاجة البشر الى هداية عامة الحاجة الى بعثة النبي عليه الصلاة والسلام في الجملة تعرف من البحث في حاجة البشر الى ارسال الرسل كما تقدم في الدرسين ١٨ و ١٩ (راجع المنار ٩ و ١٠ — ٤) ولا يوجد في اعداء الاسلام المؤمنين بالوحي والنبوة عاقل ينكر أن العرب كانوا في اشد الحاجة الى بعثة رسول منهم ينتاشهم من تلك الوثنية ، ويخرجهم من هاتيك الجهالة والهمجية ، وأن تأثير هداية محمد فيهم كان مثل تأثير هداية موسى في بني اسرائيل او اعظم واظهر ولكن الذين ينكرون حاجة الناس كافة الى هذه الهداية الالهية على لسان محمد عليه السلام كثيرون . وانما حال بينهم وبين معرفة هذا الحق المبين التقليد الاعمى . فالتقليد أعدى اعداء الحق في الدين والعلم وفي كل شئ . لأن المقلد ليس له عينان فينظر في الدليل والبرهان ، بل ينكر الحس والعيان ، ويكابر الوجود والوجدان ، وإنما نكتب ما نكتب ليزداد الذين آمنوا ايمانا وليعتبر اصحاب العقول المطلقة والافكار الحرة من غير المؤمنين

بيان حاجة جميع الامم الى الاصلاح المحمدي يتوقف على معرفة تاريخ الامم قبل الاسلام لاسيما تاريخ اهل الكتاب الذين يدعون ان في

كتبهم ماينبي عن هداية الاسلام وإصلاحه . ولا يمكن سرد تاريخ الامم تفصيلا في التمهيد لمسئلة من مسائل العقائد ولكن في الاجمال مع الاحالة على كتب التاريخ غناء . وقد كتب استاذنا الامام نبذة في ذلك وافية بالمرام في « رسالة التوحيد » التي هي حجة الاسلام في هذا الزمان وما بعده الى ما شاء الله وانا نقتبسها هنا فانظر هذه البلاغة في الإيجاز ، التي تكاد تبلغ به حد الاعجاز ، قال حفظه الله :

« ليس من غرضنا في هذه الورقات أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة في زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء ، الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما أعشو شبت به من الأباطيل القاتلة للعقول . وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بالباب الذاهلين ، وتنبه المرؤسين ، الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين ، والقادة الغارين ، وبالجملة تؤوب بهم الى رشد يفيم الانسان على الطريق التي سنها الله له [1] « إنا هديناه السبيل » ليبلغ بسلوكه كمالا له ، ويصل على نهجها الى ما أعد في الدارين له ، ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف

« كانت دولتا العالم [2] — دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان

---

(١) المراد بالطريق فطرة الله التي فطر الناس عليها . (٢) شروع في بيان الكلمة المستعارة قال في الدرس : وفاتني وقت الكتابة ذكر دولة الصين فإنها كانت أيضا ممزقة

في الغرب — في تنازع وتجالد مستمر . دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الإحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن في الملاذ بالغة حد مالا يوصف في قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة وكان شر هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد فزادوا في الضرائب وبالغوا في فرض الأتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما في أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوي في اختطاف ما بيد الضعيف . وفكر العاقل في الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الارواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوي الالباب ، فقد بذلك الاستقلال الشخصي وظن افراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم بما هو الشأن في المجاهدات مع من يقتنيها . ضلت السادات في عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقي لها من قوة الفكر أردأ بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن يعيص النور الالهي الذي يخالط الفطر الانسانية فيفتق الفلف التي أحاطت بالقلوب ، ويخرق الحجب التي أسدلت على العقول ، فتهتدي العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سجفا من الاوهام ، ويهيئوا كيفا من الاباطيل والخرافات ،

بالحروب الاهلية والحرب مع التركمان وسنذكرها في طبعة ثانية ان شاء الله تعالى

ليقذفوا بها في عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم . وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ما يثمره النظر الا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس . وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد ، هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى في جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية ، والشرائع السابقة ، أوت الى بعض الأذهان ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر ، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ؛ مع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لأول وهله الى أن مصدر كل ذلك هو الدين . فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب القوضى في العقل والشريعة معا . وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين في شعوب متعددة وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

« وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، تغز كل قبيلة في قتال أختها وسفك دماء أبطالها ، وسبي نسائها وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المطامع ، ويزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا اصنامهم من الحلوى ثم عبدوها ، فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمته . وبالجملة فكانت رُبط النظام الاجتماعي

قد تراخت عقدها في كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة

« أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤيدهم برجل منهم يوحي اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التي أظلت رؤوس جميع الأمم ، ثم كان ذلك وله الأمر من قبل ومن بعد » اه

فلم مما أورده الاستاذ الامام ان فساد الامم كان من فساد رؤساء الدين ورؤساء الدنيا وهم الملوك والأمراء وان نصارى سير الفريقين كان محصوراً في اطفاء نور الفطرة الالهية وهدم ركني السعادة البشرية وهما استقلال الفكر واستقلال الارادة . فاذا قيل انه كان في الدنيا دينان سماويان أي دين اليهود ودين النصارى وكتابان الهيان وهما التوراة والانجيل فكان يغني عن بعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم إلهام الله تعالى رؤساء الدينين وحملة الكتابين أن يقيما أصولهما ويسيرا على صراطهما ويدعوا الناس الى ذلك . نقول في الجواب ان دين اليهود كان خاصاً بشعب اسرائيل وهم المخاطبون بالتوراة دون سواهم لعلم الله تعالى ان هذا كتاب يصلح لهدايتهم وحدهم في الزمن الذي أنزل فيه وبعده الى أجل مسمى . وبعد ذلك أفسد بنو اسرائيل في الارض فسلط الله عليهم الوثنيين فسبوهم وخربوا ديارهم وأحرقوا كتابهم . ثم ان كاتباً منهم اسمه (عزرا) كتب لهم بعد زمن طويل ما يحفظه من كتابهم وشريعتهم باذن الملك الوثني ومنها الاسفار الخمسة التي يسمونها التوراة وهي تحكي عن موسى بضمير الغائب وفيها ذكر وفاته وليس ذلك مما أوحي اليه . ولولا ان الله أخبرنا في كتابه بأن اليهود نسوا حظاً مما ذكروا به لاجميع ما ذكروا به ولولا انه احتج عليهم بعدم العمل بالتوراة والحجة تقوم ببعض كلام الله كما تقوم به كله — لما صدقنا

كلمة واحدة من كتبهم ولا وثقنا بحكم واحد من أحكام شريعتهم . وحاصل القول ان الله تعالى لم يجعل التوراة منذ شرعها هداية عامة مرشدة لجميع البشر الى كمال الفطرة فكيف تصلح لذلك بعد ما طرأ عليها وعلى الناس ما طرأ

وأما السيد المسيح عليه السلام فانه لم يأت بدين جديد وانما ديانته اليهودية وشريعته التوراة ولكنه كان مصلحاً لان اليهود جمدوا على ظواهر الشريعة حتى صاروا كالماديين فأرسله الله الى خراف اسرائيل الضالة ليهديهم الى الروحانية ويبالغ فيها بمقدار ما بالغوا فى الظواهر والماديات ليكون ذلك تمهيداً لدين الفطرة الذي يجمع بين مصالح الروح والجسد .

وأما الديانة البولسية التى انتشرت في أوربا بتعليم بولس ثم مساعدة قسطنطين ومن بعده من الملوك والزامهم الناس بها فهي لا تنطبق على ما قلناه سابقاً فى وجه حاجة البشر الى ارسال الرسل لهدايتهم الى سعادة الدنيا والآخرة بتربية الروح والجسد وليس فيها قاعدة واحدة من قواعد الفطرة وانما هي عبارة عن شئ واحد وهو الايمان بالمسيح على الوجه الذين يقولونه وانه لا حاجة مع هذا الايمان الى العمل بالشريعة . والظاهر من نصوص كتب العهد الجديد ان المسيح خلّص العالم كله من العذاب من آمن به ومن لم يؤمن وانما يفضل المؤمن به غيره بأنه يحل فيه روح القدس . قال يعقوب فى رسالته « وليس من أجل خطايانا فقط بل من أجل خطايا العالم كله » . وقد ظل أهل أوروبا على هذا الدين عدّة قرون يخبطون في دياجير الاوهام والجهالات حتى دخل عليهم الاصلاح الاسلامي من بلاد الاندلس والشرق كما سنبينه

(م ١٠٢) الاستعداد لعموم البعثة : حاجة الناس الى الشئ تولد فيهم

الاستعداد له فاذا استدللنا بالعلة على المعلول قلنا أن نستنبط استعداد الأمم لمصلح عام يرسله الله تعالى لهداية الامم من شدة حاجة الامم الى ذلك الاصلاح واذا إستدللنا بالمعلول على العلة فالدليل أوضح لانه ههنا وجودي مشهود لانظري مستنبط وهو قبول الأمم على اختلافها في الاديان واللغات والمواقع هذا الاصلاح الروحي الاجتماعي الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي الالهي والالهام فقد انتشر الاسلام في المشرق والمغرب بسرعة لم يعرف التاريخ مثلها حتى كان ملك الاسلام بعد ثمانين سنة من ظهوره أوسع من ملك الرومان بعد ثمانمائة سنة والرومان أعظم أمم التاريخ الماضي في الحروب والفتوحات .

هذا هو الاصلاح الذى غير هيئة الارض وبدّل نظام الاجتماع الانساني في السياسة والحرب والمدنية والعلوم والآداب على أيدى أمة كانت قبل الاسلام أبعد الامم عن السياسة والمدنية والنظام والعلم وهي الأمة العربية . ألم تر أن نور الهداية الفطرية ماخبا بعد الاسلام من مكان الا وأومض أو تألق في مكان آخر وان دعائم العمران ماتداعت في مملكة الا وشيدت في غيرها وان غرس العلم والفلسفة ماذبل أو تصوّح في أرض الا ونما وترعرع في سواها — كل ذلك كان ينتقل مع الاسلام فكلما ظهرت قوّة الاسلام في مكان ظهرت بها ومعها هذه الاشياء حتى اذا ضعف الاسلام والمسلمون في الشرق والغرب ضعف العلم والعمران والمدنية في العالم كله ولكنه لم يذهب من العالم فيحتاج العالم الى مصلح آخر يبني له قواعد الاجتماع على أصول العلم الصحيح وسنن الكون اذ لو حصل ذلك لما كان محمد خاتم النبيين . ولكن تلك القواعد انتقلت

من مسلمي الاندلس ومسلمي الشرق الى اوروبا مع تلامذة ابن رشد وفى الكتب التي أخذها الصليبيون من المسلمين .

من عجيب أمر استعداد العالم لهذا الاصلاح العام سرعة انتقال العلم من قطر الى قطر ومن خافق الى خافق أيام مدنية العرب لأول عهدها مع صعوبة المواصلة بين الخافقين فقد كان المؤلفون من الاندلس وبلاد البربر ينقلون من كتب المؤلفين المعاصرين فى العراقين من المشرق كما كان هؤلاء ينقلون عن أولئك في كل عصر فكانت تلك الهمم الكبار، تغنيهم عن الكهرباء والبخار ، وآية أخرى من آيات هذا الاستعداد حفظ العلم والتاريخ فقد كان الكتاب يوجد قبل الاسلام فى الامم ثم يذوب ويضمحل كأن لم يكن شيئاً مذكوراً

أرأيت الاسرائيليين على غلوهم فى دينهم كيف مرت عليهم السنون والاحقاب وليس عندهم من كتاب شريعتهم الا نسخة واحدة حتى اذا فقدت ذهبت الثقة بمجموع دياناتهم الا ما كانوا يحفظون ويعملون . وقس بهم العرب الأميين وانظر كيف حفظوا كتابهم فى الصدور والسطور . وكيف رأوا فى الصدر الاول أن يرسلوا بالمصاحف الى الاقطار لتكون أصولاً يكتب منها بصفة رسمية لأن مصحفاً يرسله خليفة رسول الله بمشاورة أصحاب رسول الله واتفاقهم له حكم النقل المتواتر المجمع عليه ولولا ذلك لكان نقل المصاحف مقصوراً على الافراد الذين كانوا يحملونها . واذا اشتُبه في هذه الحال بكلمة اختلف فيها ناقل مع ناقل أو حافظ تقع الحيرة فى الترجيح لعدم وجود أصل مجمع عليه أو عدد كثير من المصاحف مأخوذة عن ذلك الاصل أو عدد مثله من الحفاظ . ولكن ذلك لم يقع فلا خلاف بين المسلمين فى كلمة ولا في حرف من حروف القرآن العزيز

من آية استعداد الامم للاصلاح الاسلامي على الطريقة الأولى (الاستدلال بالدلة على المدلول) النظر في أصول هذا الاصلاح فمنها حاجة البشر الطبيعية الي رابطة عامة بين الامم المختلفة في الجنس واللغة والدين فقد كانت هذه الروابط خاصة تجمع طائفة محصورة ليعيش أفرادها معيشة اجتماعية ولكنها تجعلهم أعداء للطوائف التي ترتبط برابطة أخرى والاسلام جاء لجمع كل الامم كما سنبينه بعد. ومنها إقامة قواعد العمران والاجتماع على سنن الكون التي تعرف بالاختبار. ومنها تقييد سلطة رؤساء الدين والدنيا وجعل مصالح الامم شورى بين أهل الرأي منهم وأصحاب الحل والعقد المرضيين عندهم ومنها جعل أحكام الشريعة دائرة على درء المفاسد وحفظ المصالح وتحكيم العرف. وكل الامم الراقية انما ارتقت بمثل هذه الاصول التي وضعها الاسلام سواء لقبت بلقب الاسلام أم لم تلقب به

ومن آية ذلك على تلك الطريقة أيضاً ما أنبته علم الاجتماع من ارتقاء الانسان بالتدريج فبعد ان كان في ظلمات من بحر الوثنية اللجي من فوقه موج من فوقه سحاب لا يكاد يرى شيئاً من نور الفطرة أرتقى في الوثنية من الاعتقاد بتأثير مظاهر الطبيعة التي لا يفهم معناها من جماد ونبات وحيوان وإنسان الى الاعتقاد بأن تلك المعبودات لا تؤثر بنفسها وإنما تتقرب من يخضع لها من واجب الوجود وتشفع له عنده في قضاء الحوائج. بهذا الاستعداد اصطدم الاسلام بالتوحيد جرائيم الوثنية من جزيرة العرب ثم انتشر التوحيد الخالص في العالم مؤيداً بالعلم فلم يخبُ مصباحه في مكان الا وأشرق في غيره. فأكثر أهل أوربا اليوم موحدون لا يعتقدون بسلطة ولا تأثير في الكون الا لمدبر الكون الذي وضع سننه ونواميسه

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ولقد كان النبي قبل الاسلام يبعث بالتوحيد فيؤمن به النفر أو القوم فلا يمضي عليهم زمن الا ويعودون الى الوثنية ويلتمسون لها الدلائل من الدين فيمحي التوحيد بالمرة . ولكنه لما بعث بعد ظهور الاسلام وان دبت الوثنية الى بعض المسلمين وصبغت عندهم بصبغة الدين بضروب من التأويل والتحريف . وسنوضح مسئلة الاستمداد بما قاله الاستاذ الامام فى ارتقاء الامم بالدين وبسبب ظهور الاسلام فى العرب الأميين فانظر ذلك فى الدرس الآتي

القسم العمومي

(الزواج وشبان مصر وشوابها)

أكثرت الجرائد اليومية الخوض فى هذه الايام في مسئلة اجتماعية ذات بال وهي ميل كثير من الشبان المصريين الى التزوج بالأوربيات وإحجام كثير منهم عن التزوج بالمرة وزعم بعض الباحثين ان السبب فى الامرين هو عدم وجود بنات مصريات « متربيات » يصلحن لشبان مصر « المتربين » . . . . وههنا شرح بعض الكتاب سوء حال تربية البنات ووصف من جهلهن وأطنب فى التنفير عنهن . وكنت أحب أن يكثر الكتاب البحث فى تربية البنات فى معرض غير معرض تفضيل الزواج بالأوربيات والترغيب عن الزواج بالوطنيات

المسئلة كبيرة وفروعها متشعبة ولطريق البحث فيها نواشط كثيرة وكأني بهذه النواشط قد تمثلت أمامي فلا أدري أي ناشط اختار في ابتداء السير لأصل منه الى الطريق الاعظم . ولكنني أقول قبل كل قول : إن